البشير واستراتيجة كبار السن

أروى النجداوي [1]

مع نهاية عام 2014، وإثْر تكليفي من قبل المجلس الوطني لشؤون الأسرة بتقييم الاستراتجية الوطنية الأردنية لكبار السن للسنوات (2009-2013)، بدأت علاقتي العملية مع السيدة هيفاء البشير (أم مازن) بصفتها عضوًا فاعلًا في اللجنة الوطنية الأردنية لكبار السنّ، التي تضم ممثلين عن مختلف الجهات الحكومية والتطوعية المعنية بقضايا كبار السنّ في الأردن.

وعلى الرغم من إعجابي الكبير بإنجازات السيدة أم مازن في مجال العمل التطوعي في خدمة كبار السن في الأردن، إلا أنَّ العمل معها عن قُرب أضاف المزيد من الإعجاب بخُلُقها وعلمها وعملها، ولا أخفي عليكم أنَّ تقييم استراتيجية وطنية متعلقة بكبار السن في الأردن شكلت تحديًا كبيرًا بالنسبة لي؛ فعلى الرغم من تمرُّسي بأساليب التقييم، إلا أنَّ موضوع كبار السنِّ له أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والصحيّة؛ لذا فقد قُمتُ بدايةً بمراجعة خطط العمل الدولية ذات العلاقة بكبار السنّ كخطة عمل «فيينا» الدولية للشيخوخة، ومبادئ الأمم المتحدة المتعلقة بكبار السن، وخطة عمل مدريد الدولية للشيخوخة، بالإضافة إلى الاستراتجيات وخطط العمل الإقليمية ذات العلاقة بقضايا الشيخوخة. كما قمتُ بمراجعة التشريعات والخطط الوطنية الأردنية ذات المساس بكبار السن، علاوةً على إنجازات الجهات المعنية ضمن القطاع العامّ والتطوعي؛ إذ تمَّ توثيق

(1) مستشارة المجلس الوطني لشؤون الأسرة في قضايا كبار السن.

هذه الإنجازات من خلال زيارات ميدانية للوزارات والهيئات والمجالس، علاوةً على زيارات خاصة لدور رعاية كبار السن، وهنا بدأت رحلة العمل الجادة في بناء منهجية التقييم الموجَّهة بالنتائج، التي استندت إلى أربعة محاور رئيسية هي: مشاركة كبار السن في عملية التنمية، كبار السن والرعاية الصحية، البيئة المادية الداعمة لكبار السن، وكبار السن والرعاية الاجتماعية.

وخلال رحلة العمل هذه، كان هناك العديد من اللقاءات التي جمعتني مع السيدة هيفاء البشير، وكنت دائمًا أستمع لها بشَغَف؛ فحديثها كان يستند إلى خبرة عمليّة عميقة في قضايا كبار السن، ورؤى مستقبلية ملامسة لما جاءت به الخطط والاستراتيجيات الدولية للشيخوخة، علاوةً على حسِّها الإنسانيِّ والوطنيِّ بهموم هذه الفئة من المواطنين في المجتمع الأردني، مما كان يثير فضولي دائمًا بتوجيه المزيد من الأسئلة والاستفسارات حول رأيها في قضايا كبار السنِّ في الأردن، وما هي السُبل والإجراءات والأولويات الواجب العمل عليها لمواجهة التحديات المستقبلية المتعلقة بالظروف المعيشية والصحية والنفسية المتعلقة بكبار السن.

وكان حديثها دائمًا يؤكِّد مدى اهتمامها وحرصها على خدمة هذه الفئة، سواء من خلال الخدمات التي تقدمها دور الرعاية لكبار السن المقيمين فيها، أو من خلال الخدمات الصحية والاجتماعية والنفسية التي تقدمها الجهات الحكومية المتعددة لكبار السنِّ ضمن مجتمعاتهم المحلية. كما كانت دائما تطرح الأفكار البنَّاءة التي تدعم فئة كبار السنِّ في الأردن؛ فهي كانت المُبادِرة بفكرة إنشاء صندوق دعم كبار السن، وتم وضع هذه المُبادرة ضمن الأولويات على خطة العمل التنفيذية لاستراتجية كبار السن للسنوات(2018-2022)، التي قمتُ بإعدادها بالتعاون مع الجهات المعنيِّة، كما تم تشكيل لجنة من كلٍّ من المجلس الوطني لشؤون الأسرة ووزارة التنمية الاجتماعية ووازرة الصحة ووزارة المالية،

للعمل على سَنِّ تشريع يُحدِّد أهداف ومهام هذا الصندوق ومصادر أمواله وأوْجُهَ صرفها، إلا أنه وللأسف، لم يرَ هذا الصندوق النور بعد.

وقد أشارت السيدة هيفاء البشير في العديد من اجتماعات اللجنة الوطنية لكبار السن إلى التحوّل الديموغرافي السكاني الذي يشهده الأردن وغيره من الدول من ازدياد أعداد كبار السن في المستقبل القريب، وما يترتب على ذلك من ضغوطات على الخدمات الخاصة بهذه الفئة، كما أنَّ ظاهرة التحول من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية التي تمثَّلت بهجرة الأبناء أو عملهم بالخارج، وظروف عمل الأبناء وغيابهم عن المنزل لساعات طويلة، أصبحت يشكل عبئًا آخر في نقص توفّر الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسيّة المناسبة لكبار السنِّ في منازلهم.

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذي زرتُ فيه دار الضيافة للمسنين لأول مرة، وقيامي بالحديث مع بعض كبار السن المقيمين هناك للاستفسار عن مدى رضاهم عن الخدمات المقدّمة لهم، فقد فوجئتُ بإحدى الإجابات من أحدهم بأنه يعيش في الدار «كملك» بعد أن تركتْه زوجته وبناته الثلاث وسافرن خارج البلاد ولم يعد هناك من يخدمه بعد وفاة والدته. كما أشار إلى أنَّه، وفي ضوء عدم قدرته على خدمة نفسه في منزله، فإنَّه وجد في الدار الرعاية الإنسانية والصحيَّة المناسبة، وأصبح طعامه وشرابه وإقامته متوفرة دون عناء.

وأثناء تجوالي في الدار والاستماع إلى العديد من الآراء، لمستُ الجوَّ الأُسريَّ والرعاية الإنسانية والطبيّة التي تُقدَّم للمقيمين في هذه الدار، وخرجتُ بانطباعٍ إيجابيٍّ حول الحياة الكريمة التي يعيشها هؤلاء بالمقارنة مع تلك الظروف السيئة التي كانوا سيعيشونها في منازلهم لو تُركوا وحيدين دون رعاية أو عناية، في ظلِّ عدم وجود من يرعاهم في منازلهم.

لقد زرعت لدي السيدة هيفاء البشير الشَّغَف في موضوع كبار السن، لذا، وخلال زيارتي لابني في ولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في ديسمبر من عام 2018، صممتُ على زيارة أحد دور رعاية كبار السن هناك للاطلاع على التجربة الأمريكية في هذا المجال،

وعلى الرغم من توفير كافة الاحتياجات المادية لكبار السن المقيمين في الدار، والتي تماثل فنادق الخمس نجوم، بالإضافة للرعاية الصحية المتميزة، إلا أنَّه، وخلال حديثي لإحدى كبيرات السن، أخذتْ تشهق بالبكاء وترجوني أن أعيدها لمنزلها لأنها غير مرتاحة في تلك الدار.

وهنا أود أن أشير إلى أنَّ معظم الدول المتقدمة أدركت مؤخرًا أهمية بقاء كبير السن في بيئته وبيته، لما يوفره ذلك من راحة نفسيّة له وذكريات جميلة يودُّ دائمًا أن يُحدِّث بها من حوله؛ لذا فإن المُمارسات الفُضلى لرعاية كبار السن أصبحت تتجه في الآونة الأخيرة نحو الرعاية المنزلية، وذلك بالإبقاء على كبير السن في منزله وقيام الدولة أو القطاع التطوعي بتوفير أخصائيين اجتماعيين أو نفسيين، وفي بعض الأحيان ممرضين لرعاية كبير السن في منزله ضمن جوٍّ أكثر ملائمة لراحته النفسية، ولعل التجربة النيوزلندية كانت رائدة في هذا المجال، إذ كانت رؤية الحكومة النيوزلندية وشعارها عند إعدادها لاستراتجية كبار السن «التعمير في المنزل» (Place Aging at).

وفي هذا الصدد، فقد تم مناقشة هذا الأمر في العديد من اجتماعات اللجنة الوطنية الأردنية لكبار السن، وفي الوقت الذي أكَّدت فيه السيدة هيفاء البشير، وكذلك جميع أعضاء اللجنة، أنَّ المجتمع الأردني ما زال مجتمعًا متماسكًا أُسَريًّا ويرعى كبير السن ويوقِّره، إلا أنَّ هناك بعض الحالات التي تستوجب وجودها في دور الرعاية لعدة أسبابٍ هي ليست مدار حديثنا في هذا اللقاء. أما بالنسبة لفكرة توفير الحكومة للرعاية المنزلية لكبار السن ممن تقطَّعت بهم السبل، فهي ما زالت فكرة حديثة في معظم الدول، كما أنَّها مُكلفة جدًّا لدولة مواردها المالية محدودة وموازنتها الحكومية متواضعة كما هي الحال في الأردن، وتبقى دور الرعاية أفضل الخيارات المُتاحة في رعاية كبار السنِّ من خلال الخدمات التي يقدِّمها القطاع التطوعي مشكورًا، وبدعم مالي من وزارة التنمية الاجتماعية بشراء تلك الخدمات.

أمَّا عن نتائج تقييم الاستراتجية الوطنية الأردنية لكبار السنِّ فقد جاءت جيدة، وعكست مدى التماسك والترابط الأسريَ في المجتمع الأردني، إلا أنه يستذكرني هنا موقف السيدة هيفاء البشير المُشرِّف حول تقييمٍ دوليٍّ قامت به إحدى الجهات الدولية حول وضع كبار السن في الأردن، فقد اعتبرته السيدة أم مازن إساءةً للجهود الحكومية والتطوعيّة والوطنيّة في رعاية كبار السن. ومن منطلق غِيرتها على المصلحة العامة عبَّرت عن استيائها وبحرارة الروح الإنسانية، خلال اجتماع اللجنة الوطنية لكبار السن، حول عدم قيام الجهة الدولية بمراعاة خصوصية وثقافة المجتمع الأردني بالتعامل مع كبار السنِّ عند إجراء عملية التقييم. وقد أثار هذا الموضوع جدلًا بين أعضاء اللجنة الوطنية لكبار السن، مما دفع االمجلس الوطني لشؤون الأسرة ووزارة التنمية الاجتماعية إلى مخاطبة تلك الجهة الدولية وإبداء التحفظات على منهجية التقييم التي تتبعها، وتبعًا لذلك قامت الجهة الدولية بإرسال مندوبها للأردنّ للاجتماع والاستماع إلى وجهة نظر الجهات المعنية بقضايا كبار السن، والتشاور حول منهجية التقييم الخاصة بهم بالمقارنة مع منهجية التقييم التي تم اتِّباعها محليًّا والتي تراعي ثقافة وطبيعة المجتمع الأردني، ووعدت تلك الجهة الدولية بإعادة النظر بمنهجيّتها المُتَّبعة في ترتيب وتقييم الدول في مجال قضايا الشيخوخة.

لقد ارتقت السيدة هيفاء البشير بالعمل التطوعي المُوجَّه لكبار السن إلى مستوى العالمية، وبعيدًا عن كل مظاهر الاستعراض الشخصي، وما قدَّمْتُه من أمثلة حول المواقف الإنسانية والعملية التي لمستُها من خلال تعاملي معها، فإنّ ذلك ليس غير جزءٍ يسيرٍ من جهودها الخيِّرة خلال مسيرتها الطويلة والمليئة بالتحديات، ولا أدري إن كنتُ قد أنصفتُ تلك السيدة النبيلة حقَّها، لكنني على يقينٍ من أنَّ إنجازاتها سيشهد لها التاريخ وتبقى نبراسًا مضيئًا في مسيرة العمل التطوعيِّ الأردنيِّ وخدمة كبار السن.